العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية
(الفترة العثمانية)

الدكتور أرزقي شويتام

أستاذ محاضر قسم التاريخ

جامعة الجزائر2

لمحة عن العلاقات العامة بين الأقطار المغاربية:

تميزت العلاقات بين الجزائر والأقطار المغاربية، ولاسيما تونس والمغرب الأقصى، بالصراع والتنافس منذ أقدم العصور، وتعد قضية الحدود بين تلك الأقطار، من العوامل التي كانت وراء توتر العلاقات ونشوب الحروب من حين لآخر. وقد سبق للأقطار المغاربية أن توحدت تحت راية الموحدين (1147-1269م)، بما في ذلك الأندلس. إلا أنه بمجرد أن زالت دولة الموحدين، انقسم المغرب إلى ثلاث دويلات[1]. وكان كل طرف يدعي أحقية وراثة الدولة الموحدية، وهذا ما أدى إلى اشتداد التنافس واندلاع الحروب. وكان لذلك آثار سلبية على الأوضاع الداخلية لتلك الدويلات، وظهرت الانقسامات والتحالفات بين أطراف ضد طرف آخر. فتحالف المرينيون مع الحفصيين ضد الزيانيين في عدة مناسبات، وامتد المد المغربي في عهد مولاي إسماعيل العلوي إلى نهر الشلف بالجزائر. كما امتد النفوذ الحفصي إلى بجاية وجزء من وسط الجزائر، وتقلصت حدود الدولة الزيانبة لتنحصر في تلمسان وضواحيها، بل سقطت دولة الزيانيين في يد حكام المغرب الأقصى. وقد

عرفت العلاقات المغاربية منعرجا خطيرا بعد أن ظهر العثمانيون في المنطقة كطرف رابع في حلبة الصراع المغاربي، ولاسيما بعد أن تمكنوا من ضم الجزائر في عام 1519م[2]، وطرابلس في عام 1561م، وتونس في عام 1574م، إلى ممتلكات الدولة العثمانية[3]، فاتخذ العثمانيون الجزائر قاعدة لشن حملات عسكرية ضد المغرب الأقصى قصد ضمها هي الأخرى[4].

وهناك من أرجع أسباب الصراع الذي كان ناشبا بين الجزائر وتونس إلى سياسة العثمانيين في منطقة المغرب، إذ أقدموا في عام 1587م على استبدال نظام البايلربايات بنظام الباشوات، كما أنهم قسموا المنطقة إلى ثلاث ولايات مستقلة، يعين على رأس كل واحدة منها حاكما. وقد كان هذا التقسيم سببا في إجهاض الوحدة المغاربية (الجزائر وتونس وطرابلس)، التي بدأت معالمها ترتسم في الأفق [5].

فإذا كان وضع العلاقات السياسية بين الأقطار المغاربية على النحو الذي ذكرناه، فما هو حال العلاقات الثقافية، وإلى أي مدى تأثرت بالوضع السياسي العام، الذي كان سائدا في تلك الأقطار؟

إذا كانت قضية الحدود والأهداف الاقتصادية والإستراتيجية تمثل هاجس الحكام المغاربة، فإن هذه الدوافع والمرامي لم تخطر في بال شعوبهم، ولاسيما العلماء والمثقفين بصفة عامة، الذين لم يتقيدوا بفكرة الحدود عبر المراحل التاريخية المختلفة، وحتى في تلك الفترات التي وصلت فيها العلاقات السياسية إلى ذروة التوتر، فكانوا يعتبرون الأقطار المغاربية وحدة متكاملة، مرتبطة بالمشرق العربي بروابط الدين واللغة والتاريخ المشترك. لقد لاحظنا كم من عالم مغاربي ترك بلاده ليستقر ببلد شقيق في المغرب أو في المشرق، بل هناك من دفن بعيدا عن بلاده وأهله، ولم يكونوا يشعرون بالغربة. فكانوا

يعتبرون أنفسهم بين ذويهم أينما حلوا، فمنهم من تزوج وانصهر في مجتمع غير مجتمعه، أمثال أحمد المقري التلمساني [6].

كان علماء ومثقفو المغاربة عامة، يشكلون وحدة متماسكة على مستوى الأقطار المغاربية والمشرقية. فكانت لهم أروقة خاصة، تعرف باسمهم في معظم المراكز الثقافية والعلمية المنتشرة في البلدان العربية، مثل رواق المغاربة في الأزهر [7] وكانوا يعيشون في الأقطار العربية (مصر، وفلسطين، والحجاز، وسوريا) في أحياء تعرف بحارة المغاربة،[8] حتى أن المشارقة لا يميزون بين الجزائري والمغربي والتونسي والليبي، فكانوا ينعتونهم بالمغاربة. وهنا تكمن صعوبة تحديد أصل الشخص وبلاده، اللهم إن كانت له مؤلفات، إذ من العادة أن يذكر صاحبها اسمه مع الإشارة إلى بلاده الأصلي، مثل فلان الجزائري، القسنطيني، التلمساني، الزواوي، الفاسي، المراكشي، التونسي، البنزرتي، الطرابلسي.

إن الوحدة والترابط الذي كان يميز المغاربة خارج إقليمهم، يجعل المرء لا يشعر بأنهم جاؤوا من دول مختلفة، تفصلها الحدود السياسية. فكانت تلك الصلات بين علماء ومثقفي المغاربة، غالبا ما تتقوى خلال مواكب الحجيج، التي كانت تنطلق من تازة بالمغرب الأقصى، مرورا بالجزائر وتونس وطرابلس والإسكندرية والقاهرة، لتصل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة [9]. وكان المغاربة خلال هذه الرحلة يتقاسمون الأتعاب ومشقة السفر ومعاناته. فتعتبر تلك الرحلة التي تستغرق مدة زمنية طويلة، من العوامل التي تساعد على تقوية روابط المحبة والمودة بين أفراد الركب، بل كانت مناسبة للعلماء والمثقفين عامة للتعارف وتبادل المعارف. " فكانوا يتصلون بالمثقفين والعلماء، فيتلقون مزيدا من التكوين العلمي، أو يقومون بالتدريس تطوعا لبعض الوقت، خلال ذلك تتاح لهم فرصة التعارف على النشاط الثقافي والتطورات العامة بالجهات التي يحلون بها" [10].

مظاهر التبادل الثقافي بين الأقطار المغاربية:

لقد تنوعت دوافع وأوجه التبادل الثقافي بين علماء ومثقفي الأقطار المغاربية، التي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

1ـ **طلب العلم:** تميز علماء ومثقفو المغاربة بكثرة التنقلات إلى منابع ثقافتهم، لإثراء معارفهم وتنويع مصادرهم، عملا بالقول القائل، أطلب العلم ولو في الصين. وكان المثقفون والطلبة المغاربة يتنقلون بين أرجاء الدول العربية والإسلامية مشرقا ومغربا، لتوسيع أفاقهم العلمية والمعرفية. فكانوا يلازمون مشاهير العلماء والشيوخ في النوادي والمراكز الثقافية المنتشرة في العالم الإسلامي. وبعد التحصيل، يعود الطلبة والعلماء إلى أوطانهم لنشر علمهم ومعارفهم بين أبناء بلدهم. وهناك من كان يفضل البقاء والاستقرار في إحدى الدول الشقيقة، يتقلد بها منصبا معينا، مثل التدريس، والإفتاء، والقضاء، وغيرها [11].

2ـ **أداء فريضة الحج:** لاحظنا أن معظم العلماء الذين كانوا يتوجهون إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، يجعلون تلك الرحلة مناسبة للاحتكاك بالعلماء المسلمين المتوافدين. فيحدث هناك تبادل ثقافي وعلمي فيما بينهم. وكان العلماء المغاربة يتوقفون بالعواصم العربية لأخذ العلم أو إعطائه، مثل الزيتونة بتونس، والإسكندرية، والقاهرة، والقدس، ودمشق، وبغداد، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة. وكان أصحاب تلك الرحلات، غالبا ما يسجلون ملاحظاتهم في مؤلفات، تعرف بالرحلات الحجازية. والتي كانت تحتوي على المسالك والمحطات التي مر بها صاحبها، والعلماء والصالحين، الذين التقى بهم أو زار أضرحتهم أو زواياهم. وتفيد تلك الرحلات المسجلة الباحث في معرفة بعض جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية لمعظم الأقطار التي توقف عندها صاحب

الرحلة [12]. وعلاوة على الرحلات الحجازية، هناك رحلات دبلوماسية تقوم بها بعض الشخصيات السياسية. وكان أولئك الدبلوماسيون يسجلون ملاحظاتهم عن المناطق التي مروا بها، والدول التي أوفدوا إليها، وكذا لقاءاتهم بالشخصيات السياسية والعلمية [13].

3ـ **الهجرة الإجبارية:** لقد أضطر بعض العلماء والمثقفين المغاربة إلى ترك بلدانهم ليستقروا في إحدى الدول العربية أو الإسلامية. وقد تعود أسباب هجرتهم إلى معارضتهم للنظم السائدة في بلدانهم، مما كان يعرضهم للمضايقات والاضطهاد. فكلما ضاقت بهم السبل في بلدانهم، انتقلوا إلى إحدى الدول التي توفر لهم الأمن والاستقرار. وكان الحكام في بعض الحالات، يستدعون بعض العلماء المضطهدين في دولهم، ليوظفونهم ضد خصومهم داخليا وخارجيا. فقد استغاثت مجموعة من علماء تلمسان في القرن السادس عشر بسلطان المغرب الأقصى عبد الله الغالب (1557-1574م)، عندما توترت العلاقات بينهم وبين الحكام العثمانيين. فأرسل إليهم جنودا، ونقلهم إلى فاس. وكان من بين هؤلاء العلماء، أحمد بن أحمد العبادي التلمساني، الذي استقر بفاس في عام 1561م، ثم عاد إلى تلمسان، واتخذ مليانة مقرا له [14]. كما حظي الأديب الجزائري سعيد المنداسي، المتوفى عام 1677م [15]، بمكانة خاصة لدى سلطان المغرب، مولاي محمد بن الشريف، الذي منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب، مقابل مدحه بأشعاره، مما عزز سياسة السلطان الداخلية في الوقت الذي كان عهده يواجه اضطرابات وعدم استقرار. وقد تكررت هذه الظاهرة أيضا، في عهد السلطان مولاي سليمان، إذ استقدم أحد أدباء الجزائر محمد بن الشاهد، الذي أشاد في قصائده بسياسة السلطان التربوية، منوها بأهمية تدريس مختصر خليل، الذي عرف تراجعا في عهد السلطان محمد الثالث [16].

العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب الأقصى:

تعود العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب الأقصى إلى أمد بعيد، إذ كان العلماء المغاربة والأندلسيون يشكلون مدرسة واحدة. وقد قيل عن علماء الأندلس "كان لشعورهم بسوء العاقبة يعملون في الهجرة إلى ما جوارهم من بلدان. وكان مقصدهم من ذلك تلمسان والمغرب الأقصى ثم تونس. وبدخول رحالة الأندلس، أصبحت هاته الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية"[17].

ومن هنا يبدو أنه ليس من المعقول دراسة العلاقات الثقافية بين الأقطار المغاربية دون إدراج علماء الأندلس، الذين كان لهم دور بارز في إثراء الحركة العلمية والثقافية في العالم العربي، وبالأخص منطقة المغرب. ويبرز العالم الأندلسي أبو الحسن علي القلصادي المتوفى سنة 891هـ/ 1486م[18] في رحلته، تلك العلاقات الثقافية والعلمية التي كانت تربط ما بين علماء الدول المغاربية والأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي[19]. ومن جملة العلماء الجزائريين الذين أخذ عنهم القلصادي العلوم النقلية والعقلية بمدينة تلمسان، محمد بن مرزوق الحفيد [20]، وعيسى الرتيمي، ومحمد الشريف، ويوسف الزيدوري، ومحمد بن النجار وأحمد بن زغو، وقاسم العقباني [21].

إن الغاية من ذكر هؤلاء العلماء، هو معرفة بعض الجوانب من الحياة الثقافية في الجزائر قبل إلحاقها بالدولة العثمانية والاطلاع عليها، لتعريف المثقفين، الذين سيأتون لاحقا، ويتولون مهمة تنشيط الحياة الثقافية في الجزائر.

أما في الفترة الحديثة (1519-1830م)، التي نحن بصدد دراستها، فإن العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب الأقصى، قد تمثلت في قيام علماء ومثقفي البلدين بتبادل الزيارات العلمية. فهناك من يسافر من أجل

التحصيل العلمي والمعرفي، وأخذ الإجازات من مشاهير المشايخ [22]. وهناك من كان يفضل المقام والاستقرار في القطر الشقيق، مما كان يمكنه من تقلد المناصب في مجال التدريس، والقضاء، والإفتاء، والخطابة، وغيرها.

وكان علماء تلمسان من الأوائل الذين كانت تربطهم صلات بالمغرب الأقصى، ومؤسساتها العلمية، بحكم قرب المسافة بين مدينتهم ومدن المغرب. بينما في الفترة اللاحقة، فإن التنقل لم يكن مقصورا على علماء الغرب الجزائري، بل شمل معظم القطر الجزائري. فارتحل العلماء من الشرق الجزائري ووسطه وجنوبه [23] إلى المغرب الأقصى للاستفادة والإفادة. وهذا ما جعل أحد الدارسين يقول عن الثقافة بين القطرين: "إن تنقل المثقفين والدارسين بين المغرب والجزائر كتنقل سكان الجزائر بين وهران وتلمسان، وسكان المغرب بين فاس ومكناس" [24].

لقد أدت الظروف الحرجة التي كانت تمر بها الجزائر في مطلع القرن السادس عشر إلى هجرة عدد كبير من العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى. ويعود أصل معظمهم إلى مدينة تلمسان. وكان وراء تلك الهجرة، الاضطرابات التي عرفتها المنطقة الغربية من البلاد، إذ دخل العثمانيون في صراع مع الزيانيين [25]، المتحالفين مع الإسبان. كما دخل سلاطين المغرب الأقصى في حلبة الصراع كطرف ثالث. ولاشك أن ذلك الوضع لم يكن ليشجع العلماء الجزائريين على البقاء في وطنهم، إذ من طبيعتهم دائما البحث عن جو يسوده الهدوء والاستقرار، لأداء رسالتهم العلمية على أحسن وجه. وبما أن ذلك لم يكن يتوفر في بلادهم، فإنهم فضلوا البحث عن أماكن آمنة.

ومن بين العلماء الجزائريين الذين انتقلوا إلى المغرب الأقصى في بداية العهد العثماني، أبو الحسن المطغري وأحمد الونشريسي [26]، وعلي بن موسى بن هارون، ومحمد بن محمد التلمساني، ومحمد شقرون، وعبد الواحد

الونشريسي، وابن جيدة الوهراني، وعلي بن عيسى التلمساني، وأحمد العقباني[27]، ومحمد بن عبد الرحمن التلمساني، وأبو القاسم بن سلطان، ويحيى الزواوي، ومحمد بن الوقاد، وأحمد المقري[28].

ونلاحظ أن عدد العلماء الجزائريين الذين رحلوا إلى المغرب الأقصى كان معتبرا نسبيا خلال القرن السادس عشر. وقد تعود الأسباب المتحكمة في هذه الهجرة الجماعية، إلى الأوضاع العامة المضطربة التي كانت سائدة في الجزائر آنذاك.

ومهما كانت دوافع الهجرة، فإن العلماء الجزائيين قد تقلدوا عدة مناصب في جامع القرويين بفاس ومختلف الحواضر المغربية، مثل مكناس ومراكش وتارودانت. وهناك من نال مكانة مميزة عند سلاطين المغرب، أمثال محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني (1502-1573م)، مفتي تلمسان وفاس. فقد تولى في عهد السلطان عبد الله الغالب السعدي، الإمامة والخطابة والتدريس بجامع القرويين. وكان يقوم بجولات علمية إلى المدن المغربية، مثل تارودنت ومراكش[29]. وحذا حذوه محمد بن أحمد التلمساني، المعروف بابن الوقاد توفي عام 1591م، الذي استقر بتارودانت، وولي بها قضاء الجماعة ثم انتقل إلى مكناسة الزيتون حيث تولى الخطابة، ليستقر في الأخير بتارودانت [30]. كما خصص السلطان الغالب لمحمد بن هبة الله المعروف بابن شقرون التلمساني (1503-1575م)، كرسيا للتدريس داخل قصره، وتولى الفتوى ورئاسة العلم في مراكش[31]. ونال محمد بن عبد الكريم الجزائري، الذي توفي بفاس في عام 1690م، مكانة سامية عند السلطان مولاي إسماعيل [32]

وقد ساهم العلماء الجزائريون في نشر العلم والمعرفة في المجتمع المغربي، وعملوا على تقوية روابط المودة بين الشعبين، وذلك بالرغم من احتدام الصراع بين العثمانيين في الجزائر والسعديين في المغرب الأقصى، ولاسيما لما

أقدمت الجزائر على احتضان بعض الأمـراء السـعديين الفـارين مـن بطـش السلطان عبد الله الغالب [33]، فإن العلاقات الثقافيـة لم تتزعـزع، بـل كانـت بمثابة جسور تربط الشعبين وعلماء البلدين.

وقد استمر توافد العلماء الجزائريين علـى المغـرب الأقصـى خـلال القـرنين السابع عشر والثامن عشر، إلا أن عـددهم قـد عـرف انخفاضـا مقارنـة بـالقرن السادس عشر. وهناك من يرجع ذلـك إلى الركـود والخمـول الفكـري والثقـافي الذي عرفته الجزائر خلال القرنين المذكورين[34]. ويمكـن إرجـاع سـبب تـدهور الحياة العلمية والدينية في الجزائر إلى طبيعة النظام السياسي الذي كـان سـائدا في تلك الفترة، إذ تمكن الآغـوات مـن الانفـراد بالسـلطة (1659ـــ1671م)، وتميـز عهدهم بالاضطرابات العنيفة، والفوضى العارمة. وقد استغل بعـض الطفيلـيين تلك الأوضاع، لادعاء العلم والمعرفة. وهـذا مـا جعـل عبـد الكـريم الفكـون، المتوفى في عام 1662م، يؤلف كتابا يفضح فيه أولئك الانتهازيين[35].

نعتقد أن قلة العلمـاء الجزائـريين في المغـرب الأقصـى لا يعـود سـببه إلى الركود الثقافي فقط، بل يعود ذلك أيضا إلى أن العلماء الجزائريين قـد غـيروا وجهتهم إلى تونس والمشرق العربي، لاسيما بعد أن أصبحت الجزائر مرتبطة بالدولة العثمانية، شأنها شأن تونس وطرابلس. وقد ذكـرت المصـادر العـدد الهائل من العلماء الجزائريين الذين استقروا بالحواضر العربية، مثل القـاهرة، ودمشق، وفلسطين، والحجاز، وبغداد، وإستانبول.

وبالرغم من عدم توفر الظروف المشـجعة لاسـتقرار العلمـاء في الجزائـر، فإن جذوة الثقافة بقيت موقدة، بفضل بعض العلماء الذين فضـلوا المكـوث في الجزائر لمواصلة نشاطهم العلمـي، ومواجهـة كـل الصـعاب، الـتي كانـت تعترض سبيلهم. وقد أشاد ابن زاكور المغربـي (1663-1708م)، الـذي حـل بالجزائر في عام 1683م، بعلمائها، الذين قال عنهم: " غرر أعلام، ينجلي بهـم

الأظلام، وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة، وتفتخر بهم أحبار الأمة، من رجال كالجبال، وأحبار كالأقمار، طلعوا في بروج سعودها بدورا البسوها رواء ونورا"[36].

وعلى أي حال، فإن النشاط الثقافي قد استمر طوال العهد العثماني، ولم يكن مقصورا على المدن فقط، بل شمل الأرياف الجزائرية. وهذا ما لاحظه أحد القادة الفرنسيين في عام 1834م، إذ قال:" إن العرب كانوا يتقنون كلهم القراءة والكتابة، وفي كل قرية كانت توجد مدرستان. أما عدد المدارس، فقد كان يناهز ألفي مدرسة. كما توجد معاهد في الجزائر العاصمة، وقسنطينة، ومازونة، وتلمسان، ووهران. إن التعليم في الزوايا الكبرى كان زاهرا. وكان لكل طريقة دينية عدة مدارس منتشرة في القطر"[37].

نكتفي بهذه الملاحظات عن الوضع الثقافي في الجزائر، لنقول إن الروابط الثقافية بين الجزائر والمغرب الأقصى بقيت مستمرة. فقد انتقل بعض علماء الجزائر إلى المغرب خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، ليعرف عددهم ارتفاعا محسوسا في القرن التاسع عشر، لما سقطت الجزائر في يد الفرنسيين. ومن بين العلماء الذين كانت لهم صلات بالمغرب الأقصى في المرحلة المذكورة، محمد بن عبد الكريم الجزائري[38]، وعمر المنجلاتي[39]، وعيسى البطيوي، وابن الكماد، وعبد الرزاق بن حمادوش، وعبد الرحمن بن الوقاد، وعبد الرحمن بن إدريس، وأحمد التيجاني[40]، وأحمد بن عثمان التلمساني، وأحمد الشريف الزهار، نقيب أشراف الجزائر، الذي استقر بتطوان مدة ثلاث سنوات[41]. وقد جمع هؤلاء العلماء بين العلوم العقلية والنقلية، فأفادوا واستفادوا كغيرهم من علماء القرن السادس عشر. ونذكر على سبيل المثال، عبد الرزاق بن حمادوش الذي كانت له عدة اتصالات بعلماء المغرب الأقصى، أمثال محمد بن عبد السلام بناني، وأحمد الورزازي، وعبد السلام القباب، وعبد القادر الفاسي. وبحكم اهتمامه بالمجال الطبي، حضر مجالس

عبد الوهاب أدراق، الذي كان طبيبا بالقصر الملكي [42]. وقد جمع ابن حمدوش بين شتى علوم عصره، كالفلك، والطبيعيات، والمنطق، وعلم النبات. وله عدة تأليف، منها: "**لسان المقال في النبأ عن الحسب والحال**" [43].

ومن علماء القرن التاسع عشر الذين ساهموا في تنشيط الحياة الثقافية في المغرب الأقصى، عبد القادر محمد الراشدي، المتوفى عام 1855م، الذي تولى قضاء مراكش. وجمع الراشدي بين عدة علوم كالنحو، والمنطق، والبيان، والحساب، والتنجيم، والفقه، والحديث، والأصول. وقد مكنه اطلاعه الواسع من تولي التدريس بالقرويين[44]. وقد أورد محمد بن عبد الله الجلالي[45] في الإجازة التي منحها لعبد القادر الراشدي المشائخ الذين أخذ عنهم وأجازوه، منهم الفاسيون: السيد محمد جسوس، والسيد الثاودي بن سوده، والسيد محمد بناني، والسيد عبد الله السوسي، والسيد إدريس العراقي الحسيني، ومولاي عبد الرحمن بن إدريس، وغيرهم. ومن أهل تلمسان: السيد محمد بن عبد الرحمن اليبدري، والسيد محمد للو، والسيد الداودي القروي، والسيد الطالب. ومن أهل تونس: الشيخ الغزلاني[46]. وأخذ علي بن الأمين الجزائري المتوفى عام 1236هـ، العلوم النقلية والعقلية عن سيدي سعيد قدورة بالجزائر، وعن الحسن بن مسعود اليوسي، والشيخ علي بن العربي السقاط الفاسي. وأخذ عن علماء مصر التي مكث بها قرابة عقدين من الزمن، ثم رجع إلى المغرب، وأخذ عن شيخ المغرب محمد بن طالب بن سودة الفاسي، وتفرغ علي بن الأمين للإفتاء والتدريس بالجزائر[47]. ونجد في نفس الفترة محمد أخو السفار الجزائري المتوفى عام 1234هـ، انتقل إلى فاس وحضر في المعقول والمنقول على السيد عمر الفاسي، وعلى الشيخ محمد البناني [48].

وكان علماء المغرب الأقصى يتوافدون هم أيضا على الجزائر للإفادة والاستفادة من علمائها، أو كانوا يتخذون القطر الجزائري محطة لهم أثناء تنقلهم

إلى المشرق لأداء فريضة الحج، أو في مهمة علمية، أو دبلوماسية. وقد ساهمت تلك الحركة في تقوية الروابط الثقافية بين علماء البلدين. ومن العلماء الذين مروا بالجزائر في عام 1589م، أبو علي التمقروتي، الذي كلفه السلطان أحمد المنصور السعدي بمهمة لدى السلطان العثماني. وقد سلك التمقروتي طريق البحر، مما سمح له بالمرور ببعض المدن الجزائرية الساحلية. فسجل خلال رحلته انطباعاته وملاحظاته في كتاب سماه "**النفحة المسكية في السفارة التركية**". وقال فيه عن بجاية: "إنها مدينة عظيمة في القديم، كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء الصالحين، منهم الولي الصالح المتبرك به أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري (1126-1198م)، دفين تلمسان[49]. أما عن مدينة الجزائر، فقال عن الحياة الثقافية فيها:" وطلبة العلم فيها لابأس بهم، إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا. وكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد إفريقية، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا"[50].

يعتبر ما سجله التمقروتي شهادة حية على أن المجتمع الجزائري كان يهتم بالعلم والمعرفة، ووفرة الكتب الموجودة بالجزائر، لدليل على أن سكانها كانوا أهل علم.

ومن علماء المغرب الأقصى الذين كانت لهم اتصالات بالقطر الجزائري في القرن السابع عشر، أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (1628-1679م)، جمع بين العلوم النقلية والعقلية، سافر من سجلماسة إلى الحجاز في عام 1662م، سالكا في رحلته الطريق الصحراوي، وقدم وصفا عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وتوقف بعدة مدن جزائرية صحراوية. وكانت له اتصالات بعلماء ومشائخ تلك المدن. وفي حديثه عن تقرت، ذكر أنه تعرف على محمد بن عبد الكريم[51] ابن عبد الكريم المغيلي، الذي توفي في عام 1505م، قاضي توات[52]. وقد ترك العياشي مؤلفا سماه "**الرحلة العياشية**"، "ماء الموائد"[53]. وفي نفس الفترة تقريبا، نجد محمد بن سليمان

الروداني المتوفى في عام 1682م، الذي كان معاصرا للعياشي، درس بالجزائر على مفتيها الأكبر سعيد قدورة. وجمع الروداني بين شتى العلوم، لاسيما الفلك والرياضيات، كما أنه أخذ العلم عن علماء مصر والشام، وتوفي بدمشق. ومن مؤلفاته، منظومة في علم الميقات وشرحها، وبهجة الطلاب في الاسطرلاب، ومختصر في الهيأة. وكان مهتما بالجغرافية، إذ وضع كرة جغرافية عظيمة(54).

والجدير بالملاحظة أن إنتاج علماء الجزائر كان محل اهتمام الكثير من علماء المغرب. فقد اعتمد علماء المغرب في مجال علم الفلك والتنجيم على أعمال العالم الجزائري ابن قنفذ القسنطيني (1340-1406م). وسبق لابن قنفذ أن تتلمذ على علماء فاس. وأقام بها قرابة عقدين من الزمن، تولى بها الخطابة والإفتاء والقضاء والتدريس(55). وحل بالجزائر في عام 1683م، محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي (1663-1708م). فكانت له عدة اتصالات بعلماء الجزائر. ومن بين أساتذته بمدينة الجزائر، الشيخ محمد بن سعيد قدورة، المتوفى عام 1684م. وقد أعجب ابن زاكور بمدينة الجزائر، فأشاد بعلمائها. وذكر أولئك الذين أجازوه، أمثال الشيخ المانجلاتي المتوفى في عام 1693م، فقال عنه:" فممن أقبسني بكلتا يديه وأجازني رواية ما لديه، العلم الأشهر والحبر الأكبر، حائز الشرفين العرضي والذاتي، أبو حفص عمر بن محمد بن عبد المؤمن المانجلاتي" (56). ويذكر المانجلاتي في الإجازة التي حررها لابن زاكور، الشيوخ الذين أجازوه، منهم: أبو الحسن سيدي علي بن عبد الواحد السجلماسي الأنصاري، المتوفى عام 1647م، وشيخ الإسلام سيدي سعيد قدورة بن إبراهيم الجزائري، إمام الجامع الأعظم(57).

وأخذ ابن زاكور العلم عن الشيخ الإمام العلامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمد ابن الإمام الأكبر أبي عثمان سيدي سعيد قدورة بن إبراهيم. وقد ورد في إجازة محمد سعيد قدورة ما يلي:" وأجزته إجازة مطلقة عامة على

شروطها المتعارفة عند العلماء القائلين بها في جميع مقروءات، معقولا ومنقولا، توحيدا ونحوا. فليحدث بذلك إن أحب عن أشياخي وأشياخهم"[58]. ومن بين المؤلفات التي اشتهر بها ابن زاكور، "**نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان**".

أما في القرن الثامن عشر، فقد زار الجزائر الوزير أبو القاسم بن محمد بن علي الزياني الفاسي (1743-1833م)، الذي تقلد عدة مناصب سياسية بالبلاط الملكي المغربي. إلا أن الزياني تعرض للاضطهاد، وصدرت أملاكه في عهد السلطان مولاي اليزيد (1790-1792م)، فالتحق بتلمسان في عام 1792م، قصد الإقامة بها. وتفرغ بعد أن تخلى عن منصبه للتأليف. وقد خلف مجموعة من التأليف، ومن أشهرها "**الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب**"[59]

ويذكر الزياني بعض العلماء الجزائريين الذين التقى معهم بقسنطينة، منهم: إمام وخطيب المسجد العتيق الوالي الصالح أبي البركات سيدي مبارك بن الفقيه العلامة سيدي عمر الصائغي، والفقيه العلامة الصوفي أبي الحسن علي بن مسعود الونيسي، والفقيه القاضي أبو عبد اله سيدي الحفصي العلمي، والفقيه العلامة سيدي أبو القاسم المحتالي، والمفتي الثاني العلامة سيدي أحمد بن المبارك العلمي، والفقيه الأديب صاحب القصائد العالية السيد ونيسي البوزنياري[60]. أما في مدينة الجزائر، فقد التقى الزياني بقاض البلد الفقيه محمد بن مالك[61]. وكانت للزياني اتصالات برجال السلطة، أمثال محمد بن عثمان باي وهران، وحسن باي قسنطينة، ووجد لديهما الرعاية وحفاوة الاستقبال. وبعد هذه الرحلة، عاد الزياني إلى وطنه في عهد السلطان سليمان[62].

هذا كل ما يمكن قوله عن العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب الأقصى. فكانت ثرية طوال العهد العثماني، وتختلف درجة أو نسبة كثافتها

من مرحلة إلى أخرى، لعدة عوامل داخلية وخارجية. كما أن العلاقات كانت مقصورة على المستوى الشعبي، ولا دخل للدوائر الرسمية فيها، فهي تتميز بالعفوية والتلقائية. وقد لاحظنا خلال استعراضنا لبعض جوانب تلك الروابط أن هناك تكاملا بين علماء البلدين، فكانوا يشكلون بحق مدرسة واحدة. فالتلميذ في الجزائر أصبح أستاذا في الحواضر المغربية، والأستاذ في المغرب أصبح تلميذا في الجزائر، والعكس صحيح، وهذا يدل على تواضع علماء المغرب عامة.

ولاحظنا أيضا أن هناك بعض العلماء الجزائريين الذين لم يكتفوا بالدور العلمي والثقافي، بل دخلوا المجال السياسي، فساندوا بعض السلاطين في سياستهم الداخلية والخارجية.

فإذا كانت العلاقات الثقافية بين الجزائر والمغرب على النحو الذي ذكرناه، فما هو حال علاقات الجزائر بتونس؟

العلاقات الثقافية الجزائرية التونسية:

يعتبر القطر التونسي أول قبلة للعلماء الجزائريين وذلك منذ أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان في عام 51هـ. فقد لعبت القيروان وجامعها الأعظم دورا ثقافيا في منطقة المغرب، فحولت المدينة مع مرور الوقت إلى مركز إشعاع ثقافي يؤمه الطلبة والعلماء من كل أقطار المغرب، لاستكمال تعليمهم ومعارفهم، ومن ثمة يواصلون رحلتهم إلى الحواضر المشرقية. وقد ساهمت القيروان في تنشيط الحياة الثقافية في المغرب الإسلامي إلى غاية عام 443هـ، تاريخ تعرضها لحملة بني هلال، الذين خربوا معالمها الحضارية وجامعها الأعظم(63). وهكذا غير العلماء المغاربة وجهتهم نحو فاس في المغرب الأقصى، التي أخذ نجمها يسطع منذ أن أسسها إدريس الثاني في عام 192هـ. كما كان لمراكش دور هام في نشر الثقافة ابتداء من القرن 5هـ (64).

أما في الجزائر، فكانت طبنة تعيش عصرها الذهبي (154-293هـ)، فكانت تنافس القيروان في المجال الثقافي، إذ تخرج منها علماء الفقه والعلوم اللسانية والفنية والأدب [65].

وقبل أن نبرز بعض الجوانب من العلاقات الثقافية بين الجزائر وتونس في العهد العثماني، نتوقف عند العهود الأولى التي سبقت الفترة المحددة للدراسة، نظرا لما تميزت به من نشاط علمي وثقافي.

بعد أن اشتهرت القيروان في القرن 3هـ/ 9م، كمركز علمي وثقافي في المغرب الإسلامي[66]، توالت الرحلات العلمية من الجزائر. ويبدو أن الشاعر بكر بن حامد التهارتي المتوفى في عام 931م، كان من العلماء الأوائل الذين شدوا الرحال إلى القيروان في عام 832م، وتولى التدريس بها[67]. وسار على دربه الأديب بن رشيق المسيلي (995-1071م). ونجد في نفس الفترة كذلك ابن سلمة البجائي، المتوفى عام 931م، أخذ العلم عن علماء تونس، وأصبح فيما بعد مدرسا هنالك. ونال إسحاق بن عبد الله الملشوني البسكري، المتوفى 841م، شهرة واسعة. وحذا حذوه الحسن بن محمد التميمي التهارتي، الذي توفي بالقيروان في عام 951هـ/ 1029م [68].

وقد عرف عدد العلماء الجزائريين المتوافدين على تونس ارتفاعا محسوسا في عهد الحفصيين، الذين جعلوا من مدينة تونس مركزا ثقافيا مهما خلفا للقيروان. وأصبح جامع الزيتونة منارة علم، يؤمها العلماء والطلبة من كل أنحاء العالم العربي، ولاسيما علماء الجزائر، باعتبارها أقرب مركز علمي من بلادهم. وكان لهؤلاء دور بارز في تنشيط الحياة الثقافية والفكرية في تونس. وقد سمحت لهم ثقافتهم الواسعة، وغزارة علمهم بتقلد عدة مناصب في الحواضر التونسية، مثل الفقه، والخطابة، والتدريس. ومن جملة العلماء الجزائريين الذين كانت تربطهم الصلات بتونس، إبراهيم بن يخلف التنسي،

المتوفى عام 1272م، والفقيه أبو عجلان القيسي البجائي، المتوفى 1276م، والفقيه والأديب الشيخ عبد المنعم الغساني، والفقيه عبد الوهاب بن عبد القادر البجائي، المتوفى عام 1291م، والشاعر والأديب عبد الرحمن الأصولي، المتوفى عام 1294م، ومحمد بن عبد الرحمن الشاطبي البجائي، المتوفى عام 1292م، ولي قضاء تونس، وأبو العباس بن الغماز البلنسي الأصل، البجائي الإقامة، المتوفى عام 1293م، كان قاضيا هو الآخر بتونس، وأبو العباس الغبريني من غبارنة منطقة القبائل، المتوفى عام 1315م، درس بجامع الزيتونة على ابن زيتون وعبد الله القلعي، واشتهر بمؤلفه "عنوان **الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**"، وأيضا ابنه أبو القاسم الغبريني، المتوفى عام 1375م، فقيه تونس وعالمها وإمامها، أخذ العلم عن ابن عبد السلام والبرزلي وأبي الطيب بن علوان وأبي مهدي عيسى الغبريني وأبي عبد الله القلشاني.

ومن علماء القرن الخامس عشر الذين توافدوا على تونس، خليل الصنهاجي، المتوفى عام 1423م، ومحمد بن منصور القسنطيني، المتوفى عام 1445م، وعبد الرحمن الثعالبي، المتوفى 1477م[69]، ومحمد بن بلقاسم الأنصاري التلمساني، المتوفى عام 1478م، الذي كان قاضيا وإماما وخطيبا بتونس، والشاعر أحمد بن خلوف، المتوفى عام 1494م، وأحمد الليانى البسكري، المتوفى عام 1494م[70].

نلاحظ مما تقدم أن أصل العلماء الجزائريين الذين كانوا يترددون على تونس، لم يكن مقصورا على جهة معينة من البلاد، بل هناك البسكري، والمسيلي، والتلمساني، والقسنطيني، إلا أن معظمهم كانوا من بجاية ونواحيها، ربما يعود ذلك إلى كون تلك الناحية كانت تابعة لحكم الحفصيين بتونس. وقد لخص أحد الدارسين الحياة الثقافية في تونس، قبل تعرضها للحملة الإسبانية في عام 1535م[71]، فقال: "كانت تونس قبل كارثة الاحتلال

الاسباني، دار علم وفقه، ورثت عن فقهاء القيروان وأخلافهم طرق استنباط الأحكام وموازنة الأدلة وضبط النصوص وتطبيقها، واختصت بطريقة في التعليم تجمع بين الفقه والتفقه، انتقلت عن المازري إلى ابن عبد السلام، فابن عرفة [72] وتلاميذه. وقد أشاد بها حجة المغرب ابن مرزوق الجد[73] وغيره. وما كاد يطلع عليها القرن العاشر الهجري حتى أخذت في التراجع بمفعول الفتن والاحتلال، ثم انعدم منها العلم تماما عند الاحتلال الإسباني، الذي استباح معاهدها، وأتلف كتبها، واستلحم ما بقي من أعلامها. ثم جاء الحكم التركي[74] ممثلا في طبقات من الجند لا صلة بينها وبين العلم" [75]. وذكر عبد الكريم الفكون أن ملك إسبانيا لما احتل تونس أباح لجنوده اقتحام جامع الزيتونة، فقتل بعض علمائها في حلقات دروسهم. وكان من بين القتلى الشيخ يحيى الكون جد والده[76].

تعد الاضطرابات التي عاشتها تونس خلال القرن السادس عشر، من الأسباب المباشرة التي أثرت في العلاقات الثقافية بين الجزائر وتونس، إذ لوحظ أن عدد العلماء الجزائريين الذين كانوا يتنقلون إلى تونس قد تقلص، مقارنة بما هو عليه في المراحل السابقة للعهد العثماني [77]. وبالرغم من تأزم الأوضاع في منطقة المغرب عامة، نتيجة الحملات الإسبانية على سواحلها، وصراع الإسبان مع العثمانيين، الذين شرعوا في تثبيت وجودهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فإن ذلك لم يمنع العلماء الجزائريين من التنقل إلى تونس، إلا أن عددهم قد عرف تراجعا في الفترة العثمانية. ومن العلماء الذين حافظوا على علاقاتهم الثقافية مع تونس، نذكر منهم قاسم بن يحيى الفكون القسنطيني[78]، المتوفى عام 1558م، الذي زاول دراسته في تونس وتولى الإمامة به، والفقيه عاشور بن عيسى القسنطيني (1576-1664م)، تولى التدريس بجامع الزيتونة، وتوفي بتونس. وسعيد بن إبراهيم قدورة، المتوفى عام 1656م، تونسي الأصل جزائري المولد. والعالم الفقيه أبو عبد الله محمد

المولود من قلعة بني عباس، الذي استكمل علمي المعقول والمنقول، وأصبح مدرسا بالجامع الأعظم، كما ولي القضاء ببلدة ماطر. والعالم أبو عبد الله العنابي الضرير، الذي اختار بلدة تستور شمال تونس، للاستقرار بها، وانتقل بعد ذلك إلى سوسة، فأخذ العلم بها عن الشيخ العالم سيدي يحيى، والشيخ علي بن موسى الأزهري، والشيخ أحمد الريغي، ثم ارتحل إلى تونس واستكمل معلوماته على العلامة محمد زيتونة [79].

وما لبث أن تحسنت أحوال تونس في عهد الحسينيين (1705-1814م). فعرفت استقرارا نسبيا، وانعكس ذلك الوضع على الحياة الثقافية. فاسترجعت المعاهد والمدارس التونسية مكانتها المعهودة [80].

وبالرغم من أن العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس خلال تلك المرحلة عرفت تدهورا كبيرا، إذ تعددت الحملات العسكرية من كلا الطرفين، فإن العلاقات الثقافية اتسمت بالاستقرار والتواصل، ولم تتأثر بالأوضاع السائدة، فاستمرار توافد العلماء الجزائريين على تونس لدليل على ذلك التقارب. والملاحظ أن العلماء الجزائريين لم يكن استقرارهم مقصورا على مدينة تونس، بل انتشروا في عدة جهات، فاستقر مصطفى بن عزوز، المتوفى عام 1768م، بنفطة، والأفضلي يحيى بن صالح (1708-1808م) من بني يزقن بجربة، ومحمد الصالح الرحموني (1729-1808م)، درس في تونس، ثم عاد إلى مسقط رأسه ببلاد القبائل حيثمارس التدريس[81]. ونجد في نفس الفترة أحمد بن عمار[82]، الذي ولي التدريس والإفتاء بتونس، ومن تلاميذه إبراهيم سيالة وأحمد الغزال الجزائري. وقد جاء في مقدمة محقق كتاب الباشي، أن صاحب التأليف الوزير الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز المتوفى عام 1788م، حرر رسائل من علم الكلام سأل عنها علماء قسنطينة، فأجاب عنها. وقد ظفرت بتقريظ ضاف لهذه الرسالة من كبير علماء الجزائر أحمد بن عمار بخطه

وختمه[83]. وهذا ما يبين مدى الترابط والتكامل الثقافي والتجاوب العلمي، الذي كان سائدا بين البلدين.

ومكث أحمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية (1737-1815م) بعض الوقت بتونس قبل أن يغادرها إلى الحجاز [84]. وكانت لمحمد أبو راس الناصري المعسكري المتوفى عام 1823م، اتصالات بالعديد من علماء تونس، أمثال محمد المحجوب، وصالح الكراش، وإبراهيم الرياحي [85]، وأحمد بيرم التونسي [86]. وقد قيل إن إبراهيم الرياحي قام بنقل الطريقة التيجانية إلى تونس مباشرة عن مؤسسها أحمد التيجاني بفاس [87].

ونضيف إلى قائمة العلماء الجزائريين الذين كانت لهم اتصالات بالقطر التونسي، حمودة المقائسي [88]، الذي مر بتونس أثناء عودته من مصر إلى الجزائر. وأحمد الشريف الزهار، الذي انتقل إلى تونس في عام 1832م، وحضر دروس العلامة إبراهيم الرياحي، والشيخ الطيب بن عيسى الجزائري[89].

هذا ما يمكن قوله عن العلاقات الثقافية بين الجزائر والأقطار المغاربية في العهد العثماني. وبحلول عام 1830م، تتعرض الجزائر للاحتلال الفرنسي. وكان لذلك انعكاسات سلبية على الأوضاع العامة بما في ذلك الحياة الثقافية[90]، إذ فضل العلماء الجزائريون مغادرة بلادهم ليستقروا في الأقطار المغاربية والمشرقية [91]. فهناك من أرغم على الهجرة، وهناك من رحل بمحض إرادته. وما لاحظناه أن العلماء المغاربة كانوا يشكلون مدرسة واحدة منذ أقدم العصور، فهناك التكامل فيما بينهم. كما أن العلاقات الثقافية بين الأقطار الثلاثة لم تتأثر طوال العهد العثماني، بالتوترات والخلافات التي كانت تحدث من حين لآخر. وهنا يصدق القول القائل إن العلاقات الثقافية تعتبر أفضل السبل لتقارب الشعوب. فهي في نظرنا تأتي قبل العلاقات

السياسية والاقتصادية التي غالبا ما تكون ظرفية، لكونها مبنية على المصلحة المادية، فبمجرد ما تتحقق تلك المنفعة، تزول تلك العلاقات، عكس العلاقات الثقافية التي تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ، فهي بمثابة جسور صامدة عبر الدهر في وجه كل التقلبات، تقوي روابط الاتصال بين الشعوب عبر الأجيال.

الهوامش:

---

(1) الدولة الحفصية في تونس (1229-1574م)، الدولة الزيانية في الجزائر (1235-1550م)، الدولة المرينية في المغرب الأقصى (1269-1465م)

(2) R. SANDER ET D. FERDINAND : **Fondation de la régence d'Alger, Histoire des Barberousse**, éd. Bousalama, 2T. T.1, Tunis, P.127.

(3)) محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس**، سراس للنشر، تونس 1980، ص68.

(4) A. BERBRUGGER : « Une lettre inédite d'un Empereur du Maroc », **R.A.** N°10, Alger 1866, P.455.

(5) محمد ماضور : **مقدمة الكتاب الباشي**، لحمودة بن محمد بن عبد العزيز، الدار التونسية للنشر، تونس 1970، ج1، ص. 9.

(6) يعد أبو العباس أحمد المقري التلمساني المتوفى عام 1041هـ/ 1632م، من مشاهير علماء الجزائر الذين صالوا وجالوا في معظم الأقطار المغاربية، ليستقر نهائيا بالقاهرة .

(7) يعتبر من أقدم الأروقة في الأزهر، إضافة إلى دوره العلمي والثقافي، كان له دور اجتماعي، إذ يقدم عدة خدمات للمغاربة طوال مدة إقامتهم بمصر، مثل الإيواء ومساعدات مالية. وكان الرواق يتلقى الدعم المادي من التجار المغاربة الذين يتعاملون مع مصر أو المقيمين بها. وهناك عدد كبير من المغاربة الذين زاولوا تعليمهم بالأزهر. ومنهم من تقلد مناصب عليا كالتدريس والإفتاء، أمثال الشيخ محمد حسن الجزائري المتوفى في عام 1187هـ/ 1773م، الذي تولى تدريس الحديث بالمدرسة الصرغتمشية. والشيخ أبو العباس الجزائري المغربي، المتوفى في عام 1202هـ/ 1788م، الذي كان مدرسا في الرواق. أنظر عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : "المغاربة في مصر في العصر

العثماني 1517-1798م"، منشورات **المجلة التاريخية المغربية**، وديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، تونس 1982، ص. 99.

(8) لم يكن المغاربة المقيمين بمصر منغلقين اجتماعيا، فإلى جانب الترابط الاجتماعي الذي كانوا يتميزون به، فإنهم اندمجوا مع فئات المجتمع المصري، وأصبحت ظاهرة التزاوج بين المغاربة من المصريات والشاميات منتشرة وبصورة واسعة. كذلك تم التزاوج بين كثير من طلبة العلم والعلماء المغاربة ومصريات وبخاصة أولئك الذين استقروا بمصر، واتخذوها وطنا لهم. نفس المرجع، ص. 114-115.

(9) لوسات فلنزي : **المغرب العربي قبل احتلال الجزائر 1790-1830**، نقله إلى اللغة العربية حمادي الساحلي، سراس للنشر، تونس 1994، ص. 75.

(10) إبراهيم حركات: **التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية**، مطبعة الدار البيضاء، المغرب 1985، ص. 22.

(11) نذكر على سبيل المثال لا الحصر، أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري، الذي نشأ بسجلماسة ثم رحل إلى فاس وأخذ عن بعض علمائها. فسافر إلى الحجاز، وأخذ العلم عن علماء مصر، منهم سيدي علي الأجهوري. ثم عاد إلى المغرب، واستقر بالجزائر حيث مارس التدريس، وتخرج على يده عدد كبير من الطلبة. توفي بالجزائر عام 1057هـ/ 1647م. أنظر نور الدين عبد القادر: **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم العصور إلى انتهاء العهد التركي**، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965، ص. 190-191.

(12) نذكر على سبيل المثال، رحلة العياشي، هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي من المغرب الأقصى (1628-1679م)، مر بالجنوب الجزائري أثناء رحلته إلى المشرق. دون رحلته المسماة "**ماء الموائد**". أنظر مولاي بالحميسي: **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، ش.و.ن.ت. الجزائر 1979، ص. 18.

وكذلك ناصر الدين سعيدوني : **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين**، دار الغرب الإسلامي 1999، ص.376.

(13) نذكر من الرحلات الدبلوماسية، رحلة التمقروتي، المتوفى عام 1595م، هو أو الحسن علي بن محمد بن علي من تمقروت بالمغرب الأقصى، بعثه سلطان المغرب أحمد

المنصور السعدي إلى تركيا في مهمة دبلوماسية، سلك طريق البحر مرورا بالمدن الجزائرية الساحلية عام 1589م. فسجل ملاحظاته عن رحلته المسماة " **النفحة المسكية في السفارة التركية**"، **الطبعة الحجرية**، د.ت.

(14) محمد مزين: "المصادر والوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني الأول والقرن 16 و17م"، **في مجلة الدراسات التاريخية**، العدد 9، الجزائر 1995، ً. 98.

(15) سعيد بن عبد الله المنداسي، شاعر شعبي توفي بسجلماسة. ويذكر أنه حرض السلطان مولي إسماعيل على محاربة الأتراك في الجزائر. أنظر محمد بن يوسف الزياني: **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، ش.و.ن.ت. الجزائر 1979.

أنظر أيضا، بركات : **المرجع السابق**، ص. 100.

(16) **نفسه**، ص. 93.

(17) محمد أبو الأجفان : **رحلة القلصادي**، **لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978، ص. 26

(18) للمزيد من التفاصيل عن حياته ومؤلفاته، أنظر ابن مريم : **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، د.م.ج. الجزائر 1986، ص 141ـ143.

(19) نفسه.

(20) اشتهرت أسرة ابن مرزوق بعدد علمائها بتلمسان، منهم ابن مرزوق الخطيب جد الحفيد، ومحمد بن مرزوق الحفيد، وابن مرزوق حفيد الحفيد، وابن مرزوق الكفيف. يعود أصل العائلة إلى القيروان، التي هاجرت بعد أن حل بها بنو هلال في أواخر القرن 5هـ/ 11م. أنظر محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تقديم محمود بوعياد، ش.و.ن.ت. الجزائر ص. 15. وكذلك أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، موفم للنشر، الجزائر 1991، 2ج. ج1، ً.145-172.

(21) القلصادي : **المصدر السابق**، ص. 96-107.

(22) تعد الإجازة التي يمنحها الشيخ للطالب بمثابة الشهادة العلمية. فهي تجيز له أن يدرس العلوم والمعارف التي أخذها عن شيخه. وغالبا ما كان الطالب يجمع عدة إجازات من

شيوخ مختلفين، ليبرر بها سعة معرفته. أما صيغة الإجازة، فإنها تختلف من شيخ لآخر. فهناك من يفضل الاختصار، وهناك من يفضل الإسهاب. فكانت إجازة علماء الجزائر وتطوان لابن زاكور (1663-1705م)، تحتوي على ثلاثة وعشرين ورقة. أنظر بركات: المرجع السابق، ص 35.

(23) فمن علماء الشرق الجزائري الذين كانت لهم اتصالات بالمغرب الأقصى، عبد الكريم الفقون (ت. 1662م)، وأبو القاسم القسنطيني (ت. 1586م)، ومحمد بن الكماد القسنطيني (ت. 1740م)، ويحيى الزواوي (ت. 1590م). أنظر عمار هلال : "العلماء الجزائريون في فاس فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين" **في مجلة الدراسات التاريخية**، العدد 9، الجزائر 1995، ص. 36.

(24) بركات : **المرجع السابق**، ص. 23.

(25) كثرت الغارات الإسبانية على السواحل الجزائرية، فتم خلالها احتلال مرسى الكبير عام 1505م، ووهران عام 1509، وصخرة البنيون في ساحل مدينة الجزائر، وبجاية عام 1510م. ومن أشهر الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر، حملة شار الخامس في عام 1541م . أنظر مجهول: **كتاب غزوات حروج وخير الدين**.

(26) يعتبر أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي من أشهر علماء الجزائر في مطلع القرن السادس عشر. ولد حوالي عام 1430م، وتوفي عام 1498م، تتلمذ على يد مشاهير علماء تلمسان ثم انتقل إلى فاس، فأخذ العلم عن محمد بن أحمد اليفري، قاضي مكناس، ومحمد القروي. وكان الونشريسي ضليعا في الحديث والتفسير والتوحيد والمنطق. وقد انتقل إلى المغرب بعد أن تعرض للمضايقات من طرف السلطان الزياني. تولى التدريس في مدارس فاس، منها المدرسة المصباحية. وأخذ عليه عدد كبير من الطلبة، منهم : عبد الواحد، الذي تولى قضاء فاس. وللونشريسي عدة تأليف، أشهرها "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب". جمع فيه النوازل الفقهية. أنظر سعيدوني: **المرجع السابق**، ص. 277. وكذلك الحفناوي: **المرجع السابق**، ج.1، ص. 66.

(27) ينحدر من أسرة العقبانيين التي أنجبت عددا كبيرا من العلماء اشتهروا في تلمسان والمغرب عامة، تخصصوا في القضاء والإفتاء، منهم : سعيد بن محمد العقباني (ت 811هـ)، وقاسم بن سعيد العقباني (ت854هـ)، وأحمد بن قاسم بن سعيد العقباني

(ت 840هـ)، وإبراهيم بن قاسم بن سعيد (ت 880هـ)، ومحمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد (ت 871هـ). أما أحمد العقباني، فقد توفي في عام 979هـ/ 1571م. أنظر:

CH. BROSSELARD : « Les inscriptions orales de Tlemcen, tombeaux des familles El Makari et El Okbani », **in R.A.** N°5 Alger 1861, P.401-421.

(28) عمار هلال: المرجع السابق، ص. 28.

(29) كان ابن جلال عارفا بالمنطق والعقائد والبيان والحديث والتفسير. أنظر الحفناوي: **المرجع السابق**، ص. 257.

(30) محمد الطمار: **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، ش.و.ن.ت. الجزائر 1983، ص. 256.

(31) هلال: **المرجع السابق**، ص. 31.

(32) كان محمد بن عبد الكريم الجزائري فقيها وأديبا، أخذ العلم عن الشيوخ المشارقة والمغاربة، منهم : أبو سيدي عبد القادر الفاسي، وأبو علي اليوسي، والشيخ سعيد قدورة، والشيخ الأجهوري، والبابلي، والفيشي، والقشاشي، ومحمد الزرقاني، وغيرهم. أنظر الحفناوي : **المرجع السابق**، ج. 2، ص. 264.

(33) بعد مقتل محمد الشيخ خلفه ابنه عبد الله الغالب على عرش السعديين. وقد تميز عهده بالاضطرابات، نتيجة لسياسته الداخلية المتشددة، التي كادت أن تعصف بعرشه. فاضطر قادة الثورات (مولي عمر، وعبد المالك، وأحمد المنصور) بعد فشل محاولتهم الرامية إلى الإطاحة بالغالب، إلى الفرار إلى الجزائر، أين وجدوا الدعم الضروري الذي مكنهم من الانتصار في موقعة وادي المخازن في شهر أوت 1578م. تحالف فيها محمد المتوكل بن عبد الله الغالب مع الملك البرتغالي سباستيان، أما المعارضون فوجدوا الدعم العسكري لدى حكام الجزائر. أنظر حسن إبراهيم شحاته: واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 1578، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب 1979. أنظر أيضا عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المغرب 1988، المجلد الثامن، ص 47.

(34) هلال، **المرجع السابق**، ص. 189.

(35) محمد بن محمد عبد الكريم الفكون : **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية**، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، المكتبة الوطنية الجزائرية، 1987، ص. 31-32.

(36) بالحميسي: المرجع السابق، ص. 116-117.

(37) فرحات عباس : **حرب الجزائر وثورتها**، **ليل الاستعمار**، نقله إلى العربية أبوبكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د. ت. ص 60.

(38) أحمد توفيق المدني : **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م**، م.و.ك. الجزائر 1986ن ص. 68.

(39) أسرة جزائرية (على ما يبدو أصلها من عرش أث منقلات، بأعالي جرجرة)، اشتهر أفرادها بالعلم، منهم علي بن محمد المانجلاتي، الذي أخذ المعقول والمنقول على الشيخ علي بن الأمين الجزائري، ومحمد الشاهد، وأحمد بن عمار، والشيخ محمد أخو السفار. تولى الإفتاء والتدريس بالجزائر، توفي في عام 1833م. أنظر عبد الحميد بك : أعيان من المشرق والمغرب (تاريخ عبد الحميد بك)، تقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، ص. 153.

(40) للمزيد من التفاصيل عن حياته وطريقته أنظر L. ARNAUD : « HISTOIRE DE L'OUALI SIDI AHMED EL TEDJANI », **R.A.** N° 5. ALGER 1861, P. 468.

(41) الطمار : **المرجع السابق**، ص. 258.

(42) حركات : **المرجع السابق**، ص. 23.

(43) عبد الرزاق بن حمدوش : **لسان المقال في النبأ عن النسب والحال**، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ش.و.ن.ت. الجزائر 1982.

أنظر أيضا: سعيدوني: **المرجع السابق**، ص. 425.

(44) حركات : **المرجع السابق**، ص. 23.

(45) ولاه محمد بن عثمان، باي وهران، رياسة مجلس الشورى. وبني له مدرسة سماها المدرسة المحمدية بمعسكر. أنظر سعيدوني والمهدي بو عبدلي: الجزائر في التاريخ، م.و.ك. الجزائر 1984، ص. 151.

(46) نفسه.

(47) عبد الحميد بك: **المصدر السابق**، 150.

(48) **نفسه**، ص. 160.

(49) التمقروتي : **المصدر السابق**.ص. 32

(50) **نفسه**

(51) بالحميسي : **المرجع السابق**، ص. 90.

(52) ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان، توفي في عام 909هـ، انتقل بعد إتمام دراسته في الشمال إلى توات. وقد شن حملة ضد يهود توات الذين احتكروا التجارة الصحراوية. أنظر محمد بن عبد الكريم : أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية، م.و.ن.ت. الجزائر 1974، ص. 8.

(53) سعيدوني : **المرجع السابق**، ص. 376.

(54) حركات : **المرجع السابق**، ص. 32، 280.

(55) هلال : **المرجع السابق**، ص. 24.

(56) بالحميسي : **المرجع السابق**، ص. 89.

(57) **نفسه**، ص. 124.

(58) **نفسه**، ص. 20.

(59) سعيدوني : **المرجع السابق**، ص. 476.

(60) بالحميسي : **المرجع السابق**، ص. 179

(61) هو الحاج محمد بن أحمد بن مالك، تولى قضاء المالكية بمدينة الجزائر في عام 1795م. أنظر أحمد الشريف الزهار : **مذكرات نقيب أشرف الجزائر**، تقديم وتعليق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت. الجزائر 1974، ص. 91.

(62) بالحميسي : **المرجع السابق**، ص. 21.

(63) محمد صالح الجابري : **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962**، الدار العربية للكتاب، ش.و.ن.ت. الجزائر 1983، ص. 85.

(64) صالح بن قربة: **عبد المؤمن بن علي موحد بلاد المغرب**، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، ص. 85.

(65) الطمار: **المرجع السابق،** ص. 84.

(66) للمزيد من التفاصيل عن الحياة الثقافية والفكرية في القيروان في العهد الأول، أنظر أبو العرب محمد بن أحمد تميم القيرواني : **طبقات علماء إفريقية وتونس،** تقديم وتحقيق، علي الشابي ونعيم حسن نعيم اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968.

(67) الجابري : **المرجع السابق،** ص. 21.

(68) **نفسه،** ص. 22.

(69) يعود أصله إلى بلدة يسر. بعد أن استقر ببجاية التي دخلها في عام 1399م، أخذ العلم عن علمائها، أمثال عبد الرحمن الوغليسي، وأحمد بن إدريس، وغيرهما، انتقل إلى تونس حيث أخذ العلم عن أبي مهدي عيسى الغبريني، وأبي عبد الله الأبي، وأبي القاسم البرزلي، وأبي يوسف يعقوب الزغبي، وغيرهم، ثم انتقل إلى المشرق، فأخذ العلم عن علماء مصر، أمثال أبو عبد الله البساطي، وولي الدين العراقي. ولما عاد من المشرق استقر بمدينة الجزائر، ودفن بها. أما عن تاريخ وفاته، فهناك من أرجعه إلى سنة 875هـ. أنظر الحفناوي: **المرجع السابق،** ج.1، ص. 73.

(70) الجابري : **المرجع السابق،** ص. 23-27.

أنظر أيضا : هلال : **أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962،** ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995ن ص. 380.

(71) استنجد السلطان الحفصي الحسن بالإمبراطور الإسباني شرلكان لاسترجاع تونس من خير الدين بايلرباي الجزائر، الذي احتلاها في عام 15343م. أنظر غزوات عروج وخير الدين، ص. 35.

(72) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي نسبا، التونسي بلدا، فقيه تونس وعالمها وخطيبها. توفي سنة 803هـ. أنظر ابن قنفذ القسنطيني : **كتاب الوفيات،** تحقيق عادل النويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1980، ص. 379.

(73) هو محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب شمس الدين، شهر بالخطيب والجد (711-761هـ). أنظر عن حياته وآثاره مقدمة المسند الصحيح. وكذلك الحفناوي : **المرجع السابق،** ج.8، ص. 161.

(74) ألحقت تونس بمشمولات الدولة العثمانية في عام 1574م.

(75) ماضور : في تقديمه لكتاب الباشي، ص. 13-14.

(76) الفكون : **المصدر السابق**، ص. 41.

(77) هلال : **المرجع السابق**، ص.393.

(78) قال عنه عبد الكريم الفكون : كان قاضيا بمدينة قسنطينة في زمن الشيخ الوزان. وتولى إمامة جامع البلاط بتونس حين انتقل والده إليه به. وكان العم قاسم ممن تصدى للتفسير زمن مشيخة عصره. وتوفي خمسة وستين وتسعمائة 965هـ/ 1557م. **المصدر السابق**، ص. 43.

(79) الجابري : **المرجع السابق**، ص. 22.

(80) ماضور : **المرجع السابق**، ص. 14.

(81) هلال : **المرجع السابق**، ص. 396.

(82) شاعر وأديب، صاحب الرحلة الحجازية، ولي الإفتاء بمدينة الجزائر، توفي عام 1206هـ. أنظر سعد الله: **أعيان من المشارقة والمغاربة**...ص.153. وذكر أحمد توفيق المدني، أن أحمد بن عمار أعظم علماء العاصمة وأكبرهم صيتا وأنبغهم في علوم المعقول والمنقول، ومن كبار الشعراء والأدب، ازدان به منصب الإفتاء المالكي بالعاصمة مدة طويلة. ومن آثاره كتاب اسماه " نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب". إلا أنه أخطأ في تحديد تاريخ وفاته، إذ حدده ب 1270هـ، ربما خطأ مطبعي. محمد عثمان باشا...، ص. 73. وورد في موضع آخر، أن أحمد بن عمار كان مفتيا مالكيا بمدينة الجزائر عام 1180هـ. أنظر عبد القادر نور الدين : **المرجع السابق**، ص. 19.

(83) ماضور : **المرجع السابق**، ص. 19.

(84) هلال : **المرجع السابق**، ص. 396.

(85) كان خطيبا بجامع الزيتونة في عهد الباي أحمد. وكان الباي عند حضوره بجامع الزيتونة في الاحتفال الرسمي بالمولد النبوي، يشرع خطيب الجمعة الشيخ إبراهيم الرياحي في تلاوة تأليف له في فضائل الميلاد النبوي، وفيه كثير من الموضوعات التي يرفضها علماء الحديث. أنظر محمد الصادق بسيس : محمد بن عثمان السنوسي، حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، 1978.

(86) سعيدوني : **المرجع السابق** ،ص. 461.

(87) حل إبراهيم الرياحي بالمغرب سنة 1803م، موفدا من باي تونس حمودة باشا إثر مجاعة حلت بالقطر التونسي. فطلب باسم حكومة تونس مساعدة من الحبوب. أنظر حركات : **المرجع السابق**، ص. 22.

(88) هو حمودة بن محمد بن عيسى الشريف الجزائري المعروف بالمقايسي. قرأ بالأزهر . فلما عاد إلى الجزائر توقف بتونس، فطلبوا منه الجلوس للتدريس ويقومون بما يحتاج إليه. ولكنه أراد أن ينصرف إلى الجزائر، فوجد فيها علماء ولم يشأ أن يتوظف. فكان يتعيش من صنعة يديه. وأكل كتبه كما قال يعني أنه باعها وأنفق ثمنها على نفسه. ومن صنعته جاء لقبه المقايسي، توفى عام 1245هـ/ 1829م. أنظر عبد القادر نور الدين : المرجع السابق، ص. 209.

(89) **نفسه**، ص. 154.

(90) للمزيد من التفاصيل عن الوضع الثقافي في الجزائر خلال فترة الاستعمار الفرنسي، أنظر أبوالقاسم سعد الله : "مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي 1830-1954"، **في مجلة الثقافة**، العدد 79، الجزائر 1984.

(91) حول النشاط العلمي والفكري للطلبة وعلماء الجزائر في المشرق، أنظر هلال: "الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916" **في مجلة الثقافة**، العدد 79، الجزائر 1984.